المنهج التداولي في التفسير ـ دراسة أثر السياق في التفسير القرآني

د. فاطمة نصر بن ناجي ـ كلية الآداب العجيلات ـ جامعة الزاوية

The Pragmatic Approach in Interpretation: A Study of the Impact of Context in Quranic Interpretation

Dr. Fatima Nasr Ben Naji / Assistant Professor / Linguistics / Al-Zawiya University / Libya /

Abstract

The pragmatic approach is one of the pillars of discourse analysis in its social and cultural context. It focuses on how language is used in communication and interaction between individuals. Analyzing the Qur'anic discourse using the pragmatic approach helps in understanding how language is utilized in the Holy Quran and its impact on the recipient. It seems to us that context is one of the most essential elements necessary for determining the intended meanings, and many interpreters have adopted it to understand discourses and texts and to interpret what is ambiguous among them. In our research, we will present the most important relationships between linguistic context and levels of grammatical analysis in determining the meaning of the text within the Qur'anic discourse through a study of some interpretation books.

Keywords: pragmatics / text / discourse / communication / context.

الملخّـــــــص:

يعد المنهج التداولي من ركائز تحليل الخطاب في سـياقه الاجتماعـي والثقافي، ويهتم بكيفية استخدام اللغة في التواصل والتفاعل بين الأفراد وتحليل الخطاب القرآني باستخدام المنهج التداولي يساعد في فهم كيفية استخدام اللغة في القرآن الكريم، وتأثيرها على المتلقي. وقد بدا لنا أن السياق من أهم العناصر الضرورية في تحديد الدلالات المقصودة، وقد اعتمده عديد المفسرين في فهم الخطابات والنصوص وتأويل ما أشكل منها وإننا من خلال بحثنا سنعرض أهم العلاقات بين السياق اللغوي ومستويات التحليل النحوي في تحديد معنى النص داخل الخطاب القرآني من خلال دراسة في بعض كتب التفسير

الكلمات والمفاتيح: التداولية ـ النص ـ الخطاب ـ التواصل ـ السياق

المقدمــة:

لقد أصبحت التداولية بما أوجدته من مناهج وبما لها من آفاق واعدة ، تلقي بظلالها على الدراسات النصّية في عالمنا العربي ، و هي تعنى بصفة خاصّة " بالمخاطب و المخاطِب وهما في نظم عملية التّلفّظ ، ففي الخطاب يخرج النظام من حيّز التّجرد إلى المنجز الراهن " [1] و في هذا السياق استُخدمت جملة من المناهج التي تخدم النص ، و تكشف دلالته ، وكان من أهم تلك المناهج التي تنبّهوا إليها " المنهج السياقي أو المنهج التداولي " ، وقد تعددت مباحثه في كثير من المصنّفات ، منها كُتب التفسير والحديث و الفقه و الخلاف النحوي و غير ذلك ، فأصبح المنهج التداولي أداة من الأدوات المنهجية المهمّة في المشاغل التطبيقية .

لقد أصبحت العلاقة بين السّياق اللغوي و مستويات التحليل النحوي في تحديد معنى النص في الآونة الأخيرة حدثاً مطروقاً ، و غرضاً مروماً ، تكلّم فيه الباحثون فأكثروا ، وقد ظهر لنا أنه ثمة فصل كلام في السياق و التحليل النصي و المعنى ، لم يوفّ حقه من النظر وهو ما دعانا للبحث في المُنجز العربي و الغربي للسياق وعلاقته بالنص ، و نص القرآن الكريم بشكل خاص و ذلك بالنظر فيما افترق من مباحثه في كتب اللغة والتفسير ، قصد تجميعها و إخراجها إخراجاً يتلاءم و ما للسياق من القيمة النصّية ، و الحضور الوازن في منظومة اللسانيات النصّية و تحليل الخطاب.

وبالنظر للتداولية فهي دراسة الظواهر اللغوية في مجال استعمالها بالعرّف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي في مجال الفهم ة الإفهام، تربط المقال اللغوي بملبسات غير لغوية لها دور كبير في تحديد المعنى المقامي كالمرسل والمتلقي، وما بينهما من علاقات اجتماعية من خلال زمن التلفظ والظروف المصاحبة للمخاطب والمتلقي وغيرها من الأمور التي تساعد المتلقي في فهم الخطاب وإدراك قوته ألإنجازيه [2]

1- إرهاصات المنهج التداولي :

ما هي التداولية؟

قد اشتقت كلمة (تداولية) من اللفظ اليوناني والذي يعني " فعل، تنفيذ، إتمام، طريقة التصرّف، نتيجة فعل ...ويُعدّ الفيلسوف السيميائي الأمريكي موريس أوّل من استخدمها عام 1938، وأرهص بعلم لم يكن قد ولِدَ بعد إذ قال: " التداولية هي هذا

الجزء من السيميائية الذي يُعالج العلاقة بين العلامات ومتداوليها " وترى أنّ هذا التعريف يفيض عن المجال اللساني ويتجاوزه لينحو باتجاه السيميائية [3]

ويرى الفيلسوف عالم المنطق "يهوا بار هيلة" بأن التداولية تتناول العلاقات الجوهرية التواصليّة في اللغة الطبيعية بين المتكلّم والسّامع والسّياق اللساني وغير اللساني، وتوفّر المعرفة العميقة وسرعة اكتساب تلك المعرفة العميقة و النوايا الحسنة للمشاركين في الفعل التواصلي [4]

يدرس علم استعمال اللغة أو التداولية اللغة في حيز الاستعمال متجاوزاً حدود الوضع الأصلي وإن كان يبني عليه، وذلك لأن مقاصد المتخاطبين لا يمثلها الوضع اللغوي المجرد فقط، ولا يمكن الوصول إليها إلا من خلال فهم اللغة في سياق الاستعمال المتجدد بتجدد مقاصد المتكلمين، يستند فيه المتخاطبون إلى الوضع اللغوي، ويتجاوزونه تلبية لمقاصدهم وأغراضهم الدلالية .التداولية وكونها تبحث عن المعنى، لا شك بأنها ستكون ملتقى الدراسات المختلفة أدبية، قانونية، فلسفية فهذا شأن مسائل المعنى، لأن طبيعة المعنى وتحصيله يتداخل فيه كل ذلك، فكل له من المعنى نصيب في النظر والبحث، وكل يراه من زاويته، لذا فلا غرابة أن تولد التداولية متأثرة بالدراسات الفلسفية والمنطقية والقانونية .ثم تبلورت هذه النظرية اللسانية، ورسمت منهجها الخاص، وحدودها المميزة لها كنظرية مستقلة لها وجودها المستقل عن أسسها الفلسفية والقانونية، فقام هذا المنهج على العديد من المقولات والنظريات التي تطوف حول المعنى التداولي.

ويعد أوستن وتلميذه سيرل من أبرز مؤسسي المدرسة التداولية، ثم تبعهم في تطوير هذا المنهج الفيلسوف بول غرايس في جهوده الكبيرة التي طور بها الدرس التداولي، ولاسيما في حديثه عن مبادئ المحادثة [5]

وقد "طــرح التداوليون أفكاراً عدة في طريقهم إلى المعنى، فتحدثوا عن القصدية عند المتكلم، وتحدثوا عن أفعال الكلام، وتحدثوا عن أنواع المعنى وذكروا كثيراً من القضايا في سياق استعمال اللغة..، ولكن الملاحظ أن بعض الباحثين الذين درسوا التداولية أنهم قد عكفوا على فكرة واحدة مما ذكره التداوليين وتحدثوا عنها وخصوها بالتداولية دون غيرها هذا من ناحية .من ناحية أخرى نجد كثيراً ممن تحدث عن التداولية كمنهج تحدث عنها مجزأة غير مترابطة، فذكر مجمل أفكارها كما تلقاها عن التداوليين من غير أن ينظمها في عقد يسلسلها بشكل منطقي ويظهر ترابط الأفكار

وتتاليها، بحيث تظهر كمنهج أو كنظرية، هذا وإن كنا نلحظ أن محمد محمد يونس علي تحدث عن التداولية كمنهج متكامل، وإن كان ترك بعض القضايا التي ذكرها غيره .لذا ففي هذه الصفحات القليلة محاولة لتقديم التداولية - بشكل مبسط من خلال القراءة في بعض مصادرها - كمنهج مترابط، يضع الأفكار التداولية في منظومة تراعي صيرورة البحث التداولي عن المعنى، بحيث تتالى الأفكار وتتسلسل المسائل بعيداً عن التجزئة غير المترابطة .التداولية"[6]

مراحل نشأة التداولية:

مرة التداولية اللغوية بمراحل نشأة جعلت منها فكرا مستقلا إلا أنه غالبا ما يحدث لغط بين التداولية واللسانيات وهذا ما يستدعي" بعض المنظّرين أن يعدوا التداولية جزءاً لا يتجزءا من اللسانيات، ويتحدثون عن التداولية اللسانية المُدمجة بـ(اللسانيات) ويرى بعضهم الآخـــر أن التداولية علمٌ مستقلٌ يتمثل اليوم في أنموذج نظري مستقل هو التداولية المعرفية، وهذا يعني مدى صعوبة توحيد التداولية، سواء من حيث تحديد حقلها التطبيقي أو من حيث تحديد فرضيتها وحتى مصطلحاتها "[7]

1- مرحلة ما بـين عامـــي (1930-1940): قد ساد ما بين عام 1930 وعام 1940 التقليد المرتبط بالسيمياء والمنطق الرياضي الذي يمثله العالمان بورس وشارل موري والذي يعتبر أن نظام لغوي (اللغة الطبيعية واللغة الاصطناعية) يتكون من علم النحو الذي يدرس العلاقات بين العلامات، وعلم الدلالة الذي يدور على الدلالة التي تتحدد بعلاقة تعيين المعنى الحقيقي القائم بين العلامات وما تدل عليه المراجع الثلاثـة:

1- أشياء العالم

2- الحالات والأحداث والأفعال التي يتم التحقق من وجودها من خلال العالم

3- مجمل القيم الصدق / الكذب، وعلم الدلالة الذي يُعنى بالعلامات القائمة بين العلامات ومستخدميها [8]

ووفق هذا التصور مازالت التداولية لا تعدو كونها فكرة لا علما قائما بذاته ، بل هي مشرع مستمر ، و بالفعل فإن ميدانها مازال ضيقً للغاية ؛ لأنها لا تُعنى إلَّ بعدد محدود من ألفاظ اللغة التي تثير مشكلة تعترض التحليل اللساني وه، وهي الإشارات أو الألفاظ التي يتيح شكلها اللساني بمفرده أن يحدد المرجع الذي تحيل إليه أي : الضمائر الشخصية و الظروف [9]

2- التداولية ما بين علم 1950حتى 1970: فلاسفة اللغة: حاولت الفلسفة منذ زمن أرسطو أي من القرن الرابع عشر قبل الميلاد الإجابة على أسئلة منها: ما معنى فهم الرسالة اللسانية؟ وما معنى كلمة أو جملة، وما هو إدراك الدلالة؟

ومن هذا تولدت الرغبة في بحث أسس للرياضيات داخل المنطق منذ القرن التاسع عشر داخل المنظور الوضعي، هذا المطلب الذي يتمثل في خلق منظور شامل يتمتع بلغة مجردة تشبه لغة الرياضيات أدى إلى تطور مختلف فروع المنطق الصوري التي تستخدم في براهينها لغات مصطنعة لا يعتريها أي لبس أو غموض، وأنصار هذا التيار الفكري هم من علماء الرياضيات و منهم:

- الألماني غوتلوب فريجة (1848-1925) و يعد مبدع أول لغة صورية
- البريطانيان وايتهيد (1861-1947) و راسل (1827-1970)
- الأمريكيان كارناب (1891-1970) وغوديل (1906-1978)

هؤلاء هم مؤسسو الفلسفة التحليلية الأولى و التي تعتمد التحليل يقوم منها مبدأ استنتاج قضية ما من قضايا أخري صادقة أي الانتقال من النتيجة إلى السبب ، وهكذا أُقيم جسر يربط الرياضيات باللغة من خلال علم المنطق ، إلى جانب فلاسفة الغة الأنكلوسكسونيون الذين برزوا بين عامي 1950-1970 ، وهم فلاسفة مدرسة اكسفوردوهم :

- بيتر ستراوسن (1919)
- جون اوستن (1911)
- بول غريس (1913-1988)
- ويلارد كوين (1908)
- جون سيرول (1932)

وقد أهمل هؤلاء اللغة الاصطناعية واعتنوا باللغة الطبيعية؛ أي باللغة العادية وشقوا الطرق أمام التداولية من خلال نظرية الأفعال اللغوية ، عندما لاحظوا أنَ دور اللغة لا يقتصر على وصف الواقع ، بل يتعداه إلى ممارسة الفعل من خلال تغيير الواقع ، وهذا بدوره يشير إلى تطور ميدان التداولية إذ أصبح أكبر مما كان يتصوره السيميائيون خلال السنوات الممتدة بين 1930-1940 ومن هُنا نجد التداولية قد نمت لطورها الجديد الذي اكتسبها قوام علم بحد ذاته[10]

3ـ التداولية من عام 1980حتى عام 1990: لقد اكتسبت التداولية أهمية كبيرة عقب الإسهام الكبير الذي قدمه فلاسفة اللغة (الأنكلوسكسيونيون) تطورت خلالها إلى فرعين هما :

3-1 التداولية المعرفية والتي شهدت تطورا جديدا من الثمانينيات بل سبعينيات القرن الماضي وبسطت نفوذها لتشمل ميادين جديدة صُنِّفت على غرار اللسانيات وهي، علم الأصوات و علم النحو وعلم الدلالة ضمن العلوم التجريبية أي القائمة على التجربة ، و غالبا ما تقترب التداولية المعرفية من علم اللغة الاجتماعي عندما تركز على وظائف اللغة ليس على تركيبها ، ومن الواضح أن تطور العلوم في الثمانينيات قد أسهم بشكل كبير في تطور التداولية و في تحديد التيار المعرفي فيها ، هذا و تعد التداولية المعرفية نظرية مشروطة الصدق تهدف إلى قيام الفرد ببناء أفضل تصور ممكن لنفسه ، فإن احد أهدافه هو منح قيمة دلالية للجمل ، هذا و تُعنى التداولية المعرفية بجميع المظاهر الملائمة لتأويل الجمل تأويلا كاملا وفقا للسياق

3-**2 التداولية المندمجة :** ويري فيها بعض الباحتين الفرنسيين ضرورة أن تضاف التداولية إلى علم الدلالة ، من أجل تحليل الجوانب التي لا يعالجها علم الدلالة مثل وصف مقام التواصل ، وشروط نجاحه و دراسة الكلمات و تحليل مقام الإبلاغ التي تستقي دلالتها من معطيات مقام التواصل أي معطيات موجودة خارج اللغة نفسها ، و ينظر علم التداولية إذا على أنه نظرية دلالية تدمج في نظام الترميز اللساني جوانب مرتبطة بالتلفظ نفسه ، فمعنى الملفوظ ينتج عن الجمع بين المعلومات اللسانية التي تنتمي إلى المكون اللساني للجملة ، و خلافا للتداولية المعرفية فإن التداولية المدمجة غير مشروطة بالصدق ذلك أن مشروطة الصدق ترتبط بعلم الدلالة لا بعلم التداول و تهدف إلى إظهار الاختلافات بين اللغة الطبيعية و اللغة الصورية [11] و من هذا يمكن أن نستنتج أن أهم مراحل التداولية كانت ما بين عامي" 1930 و 1990"

من هذا يمكن لنا القول إن التداولية اتجاه جديد في دراسة اللغة من الجانب الوظيفي ومنهج التقى فيه دارسون مختلفون جمعتهم بعض القضايا واختلفوا في تناولها حسب توجهاتهم ومدارسهم.

هذا وإن أهمية التداولية تكمن في فهم مجمل المؤشرات المحيطة بفهم المعنى من خلال التواصل و نوايا المتكلم والاقتضاء والتضمين قصد تحقيق أغراض بعينها ولا يعتمد فقط على البنية الصوتية والتركيبية ولا الدلالية للملفوظ[12]

كما تُعنى التداولية بدراسة اللغة عند استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة، فهي ليست علما لغويا محضا بالمعنى التقليدي أو هي علم يكتفي بوصف البنى اللّغوية وتفسيرها ويتوقّف عند حدودها وأشكالها الظّاهرة، ولكنها علم جديد للتّواصل يدرس الظّواهر اللّغويّة في مجال الاستعمال ويدمج من ثمّ مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة التّواصل اللّغوي وتفسيره وتعنى التداولية بوصف العلاقات القائمة بين المرسل والمرسل إليه في إطار عمليّة التّواصل، وتعنى بالحدث اللغوي بوصفه تعابير مدرجة.

2ـ المنهج السياقي وأدواتـــه:

يُعد السياق من أهم الأدوات التي اعتمدها الباحثون في " طلب المعنى" بتمكينه والاحتياط له ولذلك تردّد السياق في كثير من المصنّفات المتعلقة بالتفسير والنّص القرآني، والحديث والفقه والمباحث النحوية والبلاغية وغيرها من المباحث التي تحتاج في فهمها وتعميق النظر فيما تطرحه من قضايا إلى سياقات ومقامات التواصل.

وقد شكّل السياق بهذا الاعتبار، فضلا عن كونه أداة فهم للنصوص، ومجالا خصبا من مجالات البحث والتّصنيف يحتاجه الباحث في التعامل مع الموضوعات، وهو بحسب ما استقرّ في الدراسات اللسانية من معطيات تداولية تفاعلية منهج مثمر، لا غنى عنه في طرق تلك المباحث لهذا وجدنا حاجة لتعميق البحث في السياق كأداة واصفة ومنهجاً ثريّا للبحث فيه.

السياق هو محور من محاور علم الدلالة، ومنهجا مثمرا من المناهج اللسانية الحديثة، وقد تم التّعبير عنه بمصطلحات مختلفة نعمل من خلال هذا البحث على مناقشتها والنظر في وجوه التقارب بينها والتراث النحوي العربي واللسانيات الحديثة وتتبع تطوّر مصطلح السياق في التراث النحوي مع عرض أبرز الإضافات اللسانية.

ويمثل مصطلح السياق وحدة مفردة أو عبارة مركّبة مستقرة المعنى وهو تعبير خاص دلالته يتميّز بالوضوح لدرجة ما وعادة ما يكون له مقابل في ألسنة أخـرى، وإن أهم ما يميز وروده في سياقات خاصّة وانتماؤه إلى جهاز واصف ضمن حقل معرفي ما، وهو ما ويوضحه ويجنبنا الغموض الذي يحدث مع العبارات المجازية وفي الانتقال من " المعنى للفظ إلى دلالات أحائية وتأويلية جديدة، لم يكن حملها في السابق " (13)

هذا ولم يكن السياق جديدا على الفكر الإنساني فهو قديم قِدم اللغّة باعتبارها نظاما يتعدى كونه مجموعة أصوات أو أداة للفكر أو تعبيرا عن عاطفة، فهو جزء من كياننا

السيكولوجي وهو عملية فيزيائية اجتماعية سيكولوجية على غاية من التّعقيد تعتمد على أربعة أمور أساسية لتمامها وهي " المتكلم والمخاطب والفكرة والكلمة أو المفردة " (14)

و يُعد الكلام أهمّ الوسائل التي يعبر بها الإنسان عن مكنونات نفسه و فكره و يترجم بها شعوره و ما استجدّ من واقعه من معان ، وهو يستخدم لأجل ذلك كلمات و جمل تحمل معاني تختلف باختلاف لغة المتكلّم و المخاطب ، و اللغة العربية هي لغة أفريقية آسيوية من أسرة اللغات السّامية ، وعندما نعبّر بها عمّا يكمن في خلجات أنفسنا شأنها في ذلك شأن اللغات الأخرى ، لابد لنا من مراعاة حال المخاطب و اختيار ما يناسب من ألفاظ ، فحال المخاطب هو المقام و ما يناسبه من ألفاظ هو المقال و لكل مقام مقال ، وهو جوهر السياق و مداره .

وقد ورد السياق في البلاغة العربية تحت مسمى " المقام" وهو تحين الفرصة السانحة والظروف المناسبة لإنجاز المهام البلاغية التواصلية وقد ربطه الجرجاني بالمقاصد عند دراسته النظم والإعجاز أما في الغرب فكانت مقولات هايمز عن الكفاءة التواصلية التي تتجاوز مجرد الكفاءة النحوية والصرفية والصوتية وفهم المفردات المجرّدة إلى فهم الموقف والسياق، واختيار المفردة المناسبة في المكان المناسب (15)

وقد حدّد التداوليون السياق بمجموعة الشروط الطبيعية والثقافية و الاجتماعية التي يتنزّل فيها ملفوظ أو خطاب و اعتبروه شاملا للمعطيات المشتركة بين البات و المتقبل ولا يمكن تحديد السياق الذي يتحقق فيه التفاعل الكلامي تحديدا دقيقا " دون الاستعانة بالمشيرات التي ترتبط بأنماط الإحالة و المُحال عليه خلال عملية التّلفظ و التي حددها "كليبار" بأنها عبارات تحيل على محال عليه يكون التعرّف عليه ضرورة و ذلك بواسطة الجوار الزّماني و المكاني الذي تظهر فيه هذه المشيرات والتي حددتها "اوركيوني" بأنها الوحدات اللسانية التي يقتضي اشتعالها الدلالي الإحالي أخد عدد من العناصر المكوّنة لوضعيّة التواصل بعين الاعتبار و ذلك من قبيل الدّور الذي تقوم به فواعل التّلفظ من قبيل الوضعّية الزّمانية للمتلفظ و للمخاطب بصورة احتماليّة تشمل الضمائر و أسماء الإشارة و جملة القرائن التي تتحدّد بها أطراف التكلّم و سياقاته (16)

1-2 أهمية السياق:

تظهر أهمية السياق عند محاولة العالم الأنتربيولوجي مالينوفسكي ترجمة بعض الكلمات من لغات إلى أخرى ، فقد وجد حينها صعوبة بالغة و تبين له أن السبب يعود

إلى أن العناصر اللغوية مرتبطة بالمواقف التي أنتجت فيها و أن نقلها إلى بيئة جديدة يُعد ضربا من المجازفة ؛ لأن محاولة تأويل دلالات مختلف الخطابات و البحث في مقاصد المتكلمين و نواياهم لا يمكن أن يصل بالباحث إلى نتائج حقيقية إلا إذا نظر بالتوازي في الظروف و الملابسات التي صاحبت تلك الخطابات وهو بذلك قد أثار نقطة جوهرية مهمة ذات صلة بالمفهوم اللساني المعاصر للغة كان بمثابة نقطة التّحول للدراسات اللسانية الحديثة بل هو نواة البداية للدراسات القائمة على السياق [17]

2-2 عناصر السياق:

يمكن تقسيم عناصر السياق إجرائيا إلى:

2-2-1 المرسل:

المرسل هو الشخص أو الكيان الذي يرسل الرسالة أو المعلومات يحدد الغرض يحدد المرسل من الرسالة والغاية منها و يختار المرسل اللغة والرموز التي سيستخدمها لنقل الرسالة ، و تُعد المعرفة المشتركة من العناصر المؤثرة و الرصيد المشترك بين طرفي الخطاب ، فالمعرفة المشتركة هب الأرضية التي يعتمد عليها طرفا الخطاب في إنجاز التواصل إذ ينطلق المرسل من عناصرها السياقية في إنتاج خطابه ، كما يعوّل عليها المرسل إليه في تأويله وذلك حتى يتمكنا من الإفهام و الفهم أو الإقناع و الاقتناع وبذلك يتضح تأثير السياق على كيفية إرسال المرسل للرسالة [18]

كما يترتب عن الخصائص التي تميّز مستعملي اللغة مستوى معين من الإنجاز اللغوي، وتلك الخصائص لا تخرج عن: خصية المتكلّم وطريقته في الكلام وجنسه بالإضافة إلى مستواه الثقافي ومكانته الاجتماعية.

2-2-2 المرسل إليه

المرسل إليه هو الشخص أو الكيان: الذي يستقبل الرسالة أو المعلومات يفهم الرسالة: يفهم المرسل إليه الرسالة بناءً على السياق والمعلومات المتاحة لديه يستجيب يمكن للمرسل إليه أن يستجيب للرسالة أو يتجاهلها. يمكن أن يؤثر السياق على كيفية فهم المرسل إليه للرسالة ويُعد المرسل إليه هو العنصر السياقي الرئيس الذي يخوّل المتكلّم استخدام أساليب مختلفة في التعبير ويسمح له باستعمال مصطلحات لغوية متعددة ويرى كارتر أن السامع أو المخاطب عند سيبويه لا يشكل طرفا أساسيا في تكوين الخطاب فحسب بل له الأثر الأكبر في تحديد عناصره وبنيته اللغوية [19]

3-2-2 عوامل المرسل والمرسل إليه

1. يساعد المرسل والمرسل إليه في تحديد الغرض من الرسالة.
2. ف يساعد المرسل والمرسل إليه في فهم الرسالة بشكل صحيح.
3. يساعد المرسل والمرسل إليه في التواصل الفعال والفهم المتبادل.
4. يتأثر التفاعل بين المرسل والمرسل إليه بالسياق والعلاقة بينهما.

3 ـ دراسة في بعض كتب التفسير

حظي النّص القرآني على مرّ العصور بعناية فائقة في مجال التّلاوة و التّفسير ، وقد أثبتت الدّراسات اللسانية القديمة منها و الحديثة إعجاز النّص القرآني في نظمه و أساليبه و دلالاته ، وبيّنت أنّ فهم دلالات الذّكر الحكيم لا تتأتي إلّ بفهم نظمه و بيان أسار إعجازه اللّغوي ، فالسياق قد يضاف إلى مجموعة من الآيات التي تدور حول غرض أساسي ، واحد ، كما أنّه قد يقتصر على آية واحدة و يضاف إليها و قد يكون له امتداد في السّورة كلّها ، بعد أنّ يمتدّ إلى ما يسبقه و يلحقه وقد يطلق على القرآن أجمعه و يضاف إليها أي : سياق الآية و سياق السورة و سياق القرآن بأكمله فهي " دوائر متداخلة متكافلة حول إيضاح المعنى ، فقد يضاف إلى مجموعة من الآيات التي تدور حول غرض أساسي واحد ، وقد يقتصر على آية و قد يمتد في السّورة كلّها و قد يطلق على القرآن أجمعه ، فالسّياق القرآني أنواع متعدّدة ، فضاؤها واحد وهو القرآن الكريم ، إذ تسير هذه الأنواع منتظمة في مدارات مقاصده و أغراضه العامة وهي : سياق السورة و سياق المقطع و سياق الآية " (20)

سنبحث في هذه الجزئية من البحث عن دور الكلمة في السياق باعتبارها مكوّنا للجملة ووحدة من الوحدات المكوّنة للنص من خلال دورها التركيبي في السياقات التي تعبّر عنها الجملة، فمعنى الجملة ليس إلا مجموع الوحدات التي تشكلها لإفادة معنى من المعاني في سياق ما، فالبنية المتشكلة في النمط التركيبي المناسب تتوزع فيها الأدوار الوظيفية للكلمات بمقتضى ما تفيده من دلالات، فالمعاني مشروطة بالأبنية شكلية مرتبطة بها.

كما أن موقع الجملة يسهم في توجيه المعنى والاحتياط له واختلاف الأبنية الشكليّة والمواقع الوظيفية يتبعه اختلاف دلالي وفقاً لحالات الاستعمال، ثم إنّ العلاقة الناظمة بين وحدات الكلام المختلفة لا تحمل أي معنى إلا من خلال علاقات بعضها مع

البعض الآخر وهو ما يُعرف بالنظم القائم، فمعاني النحو لا تقوم على أساس من المعاني المفردة للكلمات أو الوحدات الكلامية، بل تقوم على أساس من التّمازج بين معاني الوحدات الكلامية المكوّنة للجملة بأكملها [21]

2- 1- السياق في التقديم والتأخير:

يُعدّ باب التقديم والتأخير ملمح بلاغي مهم يعكس قدرة العربية وغيرها من الألسنة الطبيعية، في التعبير عن المعاني وذلك عن طريق تقديم بعض الكلام الذي حقه التأخير، أو تأخير ما حقه التقديم سواء في الجملة الفعلية أو الجملة الاسمية وما تقتضيه بنيتهما من تقديم وتأخير وهو أحد أهم أساب البلاغة وقد أتاه العرب للدلالة على " تمكّنهم من الفصاحة وملكتهم في الكلام، وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق " [22]

وقد أخذت مسألة التقديم والتأخير حيّزا كبيرا من اهتمام العرب قديما، إذ كانت عندهم مبنيّة على ترتيب الألفاظ، وحمل موقعها في السّياق، فجاء أسلوب التقديم والتأخير على قدر كبير من المساحة في البلاغة، به يمكن للمتكلم أن يحتاط للمعنى الذي يريده ويمكّنه في المتلقي / المخاطب

ومن المفاهيم المتصلة بالتقديم والتأخير " الرتبة " وتُعرّف بأنها نقل مورفيم من موضع أصل إلى موضع جديد فيغيّر بدوره نمط الجملة وينقل معناها إلى معنى جديد تربطه بالمعنى الأوّل رابطة واضحة هي عنصر من عناصر التّحول؛ لأن المتكلّم يعمد في مورفيم حقّه التأخير فيقدّمه أو إلى آخر حقه التّقديم فيؤخّره طلبا للإظهار وترتيب المعنى في النفي [23]

وجاء التّقديم والتّخير في الدّراسات الغربية ضمن ما يُعرف بـ : " المنهج التحويلي في التّركيب النّحوي وقد اقترح تشومسكي في نظريّته النّحويّة إضافة القواعد التّحويلية من تقديم وتأخير وحذف وزيادة إلى وصف التّراكيب النّحويّة وصفا بنيويا بعد أن وجد أن الاقتصار على المنهج الشّكلي لا يكفي للإحاطة بوصف النّظام اللغويّ عند المتكلّم وبذلك فقد عدّ تشومسكي التقديم والتأخير من الثنائيات التي برزت من خلال المنهج الوصفي الذي يعوّل عليه في التركيب النّحوي لتحديد المستوى الدّلالي للجملة " [24]

وفي قوله – تعالى - :﴿ **وإذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إلّا إبْلِيسَ أبى واسْتَكْبَرَ وكانَ مِنَ الكافِرِينَ**﴾ عَطْفٌ عَلى جُمْلَةِ ﴿ **وإذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنِّي جاعِلٌ في**

الأرْضِ خَلِيفَةً﴾[25] يرى بعض المفّرين أن من حق الترتيب قوله : كان من الكافرين و استكبر و أبى ؛ لأن الكفر عنده سبب الاستكبار و الاستكبار سبب للإباء و هذا الترتيب المخالف هو مراعاة الفاصلة على حد زعمهم إلا أن للأستاذ الإمام رأي مخالف مفاده أن نظم الآية المقصود بالذات وهو الإباء ثم يذكر سببه و علته وهو الاستكبار ثم يأتي بالأصل في العلة و المعلول و السبب و المسبب وهو الكفي" [25]

ويرى ابن عاشور في التحرير و التنوير أنه عطْفُ القِصةِ عَلى القِصةِ وإعادَة إذْ بَعد حَرف العَطفِ المغني عَن إعادَة ظَرفه تَنبيه عَلى أن الجمْلَةَ مَقْصودَة بِذاتِها لِأنَّها مُتَمَيِّزَةٌ بِهَذِهِ القِصَّةِ العَجِيبَةِ فَجاءَتْ عَلى أُسْلُوبٍ يُؤْذِنُ بِالِاسْتِقْلالِ والِاهتِمامِ، ولِأجلِ هَذِه المراعاةِ لَمْ يُؤْتَ بِهَذِهِ القِصةِ مَعطُوفةً بِفاء التفرِيعِ فَيَقولُ فَقلْنا لِلْملائِكَة اسْجُدُوا لِآدَمَ وإنْ كانَ مَضْمونُها في الواقِعِ مُتَفرعا عَلى مَضْمُونِ الَّتِي قَبلَها، فَإنَّ أمْرَهم بِالسُّجُودِ لِآدَم ما كانَ إلّا لِأجْلِ ظُهُورِ مَزِيَّتِهِ عَلَيْهِمْ إذْ عَلِمَ ما لَم يَعلَموهُ، وذَلِكَ ما اقْتَضاهُ تَرتِيب ذِكْرِ هَذِه القِصَصِ بَعْضِها بَعْدَ بَعْضٍ ابتداءً مِن خَلْق السَّماواتِ والأرْضِ وما طَرَأ بَعْدَه مِن أطوارِ أُصولِ العامرين الأرضَ وما بَينها وبَين السَّماء فَإن الأصلَ في الكلامِ أن يَكونَ تَرْتِيب نَظْمه جاريًا عَلى تَرْتِيب حُصولِ مَدلُولاتِه في الخارِج ما لَم تَنصَبَّ قرِينَة عَلى مُخالَفَةِ ذَلكَ[27]

نجد عند قوله – تعالى-: ﴿**وَوَهبْنا لَهُ إسْحاق ويَعْقُوبَ وكلاً هَدَيْنَا**﴾ [28]ا نجد غب هذه الآية " قد جاء المفعول به متقدما وهو " كلا" ففي تقدّمه أفاد الحصر"[29] (رشيد رضا، تفسير المنار 7-430) و " تُعرب " كلا" توكيد إذا اتصل به ضمير رفع متصل نحو: جاء الرجلان كلاهما، أما إذا لم يتّصل بها ضمير فإنه لا يكون توكيدا ويُعرب حسب موقعه من الإعراب "[30]

وإن الفعل " حرّم تأخر عن مفعوله " ألذكرين" ليبين إذا كان التّحريم للذكرين من كل زوج أم الاثنين و ألذكرين منصوب بـ حرّم "[31] وهو المفعول به و تقدّمه لفائدة لأن و إن خروج الجملة عن نمطها التركيبي المألوف إنما يكون لغرض بلاغي يهدف إليه هذا التّعبير أو يطلبه التركيب فـ" ألذكرين " الهمزة حرف استفهام و ألذكرين مفعول به مقدّم للإنكار و إبطال التحريم من أصله و نفي أن يكون قد حرّم شيء مما ذكر أنّه محرّم ، و تقديم المفعول لإفادة الاختصاص "[32] و هذا التقديم يختص بدرجة التقديم في الذكر أي اختصاصه بما يوجب ذلك ولو أُخّر لما تغيّر المعنى

2-3- السياق في الحذف:

وهو ما يكون بـ " حذف كلمة أو جملة أو أكثر من جملة مع قرينة تعين الحذف "[33] أي: " إسقاط بعض العناصر من النّص لغرض من الأغراض البيانية، مع وجود دليل على المحذوف "[34]

وفي علاقة الحذف بالسياق فإنه " لابد أن تكون في المذكور دلالة على المحذوف إما من لفظه أو سياقه وإلا لم يتمكّن من معرفته فيصير اللفظ مُخلاً بالفهم ولئلا يصير الكلام لغزا فيهجن في الفصاحة وهو معنى قولهم: لابد أن يكون فيما أبقى دليلا على ما ألقى " [35] أمّا لسانيات النّص الحديثة فقد عدّت " الحذف إحدى علاقات الاتساق اللغوي داخل النّص والذي يؤدي بدوره إلى تماسك النّص فحذف جزء من الجملة الثانية دال عليه في الجملة الأولى "[36]

ويذكر البلاغيون أنّ حُسن العبارة في تراكيب كثيرة يرجع إلى ما يعمد إليه المتكلّم من حذف لا يغمض به المعنى ولا يلتوي وراءه القصد، بل على العكس من ذلك تصرّف تصفى بع العبارة ويشتد به أسرها ومن طبائع اللغات " أن تسقط ألفاظ ما يدل عليها غيرها، والذي يرشدنا إلى الساقط هو سياق الكلام أو دلالة الحال، وتكون البلاغة في هذه الإجازة التي تمت بسبب الحذف التي تعتمد في الفهم على ذكاء القاري أو السّامع وتعود على إثارة حسّه، وبعثه خياله وتنشيط نفسه "[37]

ومعلوم أن المسند إليه ركن أساسي في الجملة والأصل في ركني الجملة العربية أن يُذكرا، فلا يعدل المتكلّم عن ذكر أحدهما إلى الحذف، إلا كان في السياق قرينة تدل عليه، إذ لا حذف إلا بقرينة وقد نصّ سيبويه على ذلك كما تعرّض النحاة لمسألة تمام الجملة بحثا عن أحد مطلوبات أجزائها غير الملفوظ به وكان نظرهم في تمام الجملة أولا منصبّا حول ما يضمر من الأفعال أو الأسماء، فذكروا في الفعل أنّ في إضماره و إظهاره ثلاثة أضرب " ظاهر لا يحسن إضماره ومضمر مستعمل إضماره ، و مضمر متروك إظهاره "[38] ، ففي قوله تعالى : ﴿ **أَو كالّذي مَرّ عَلى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٍ عَلى عُرُشِهَا** ﴾ [39] " يجوز أن يحمل على المفسّرين اللفظ كأنه قيل " أرأيت كالذي حاج أو كالذي مرّ و إذا قرّر بالآية قبلها ثبوت انفراد الله بالألوهية (...) أعقب بإثبات البعث الذي أنكره أهل الإشراك " [40] ، أمّا في قوله تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [41] فقد عدّ ابن النحاس " الهمزة للاستفهام الإنكاري (...) و جنّة مجرورا لفظا مرفوعا محلا على أنه مبتدأ مؤخر و الجملة في

محل نصب معمولة ليتفكروا ، فهو عامل فيها ، لوجود المعلق له وهو " ما " النّافية ، ويجوز أن تكون " ما" استفهاميّة في محل رفع مبتدأ و الخبر بصاحبهم و " من جنة " جار و مجرور متعلقان بمحذوف حال " [42] و قد تّرك الفعل لما في الآية من قرائن تدل عليه فـ" الاستفهام للإنكار وهو داخل على فعل حُذف للعلم به من سياق القول و التقدير أكذبوا الرسول ولم يتفكروا في حاله من أوّل نشأته و في حقيقة دعوته و دلائل رسالته ، فإن حذف معمول التفكير يؤذن بعموم ما يدل عليه المقام مما يقتضيه الحال و هي قاعدة في علم المعاني " [43]، وأمّا في قوله تعالى : ﴿ **قُل هَل تَربّصُوا بِنَا إلاَّ إحْدى الْحُسْنَيَيْن و نَحْنُ نَتَربْصُ بِكُمْ إلاّ أنْ يُصِبَكُم الله بِعَذَبٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوبَأيْدِنَا فَتَرَبّصُوا** ﴾ [44] في هذه الآية الكريمة قد تمت الإشارة إلى عدة وجود في نظم الآية في مخاطبة المؤمنين الكفّار و ما جاء فيه من ذكر عاقبتهم الكفار من تلك الوجوه حذف مفعولي الأمر " تربصوا " واسم الفاعل " متربصون " و السّر في استعمال الاسم و الفعل أبلغ للإيجاز في حذف مفعول تربصهما و في التّعبير عن تربص المؤمنين بالصفة الدالة على تمكّن الثقة من متعلقة "[45]

3ـ الخاتمـــــــة:

لقد قادنا البحث في المنهج التداولي من خلال دراسة أثر السياق في التفسير إلى نتائج نعتقد أنّها تتضمّن في مجملها إضافة نوعيّة سوى في فهم المنطلقات التي اعتمدتها التداولية وما للسياق من أثر في المعنى ويمكن جمع نتائج البحث في نقاط الآتية:

1ـ نشأة التداولية انطلاقا من فهم المعنى الكامن داخل الكلمات من خلال مرسل و مستقبل ورسالة في حال الاستعمال ذلك أن دراسة النصوص لا تكون إلا في ضوء سياقاتها واستنطاق العناصر التي تفرض على الباحث الإلمام بالمعطيات السياقية للنص في حال التداول لما لها من أهمية في بلوغ المعنى

2ـ عدّت التداولية السياق من المفاهيم الضرورية التي تؤدي إلى فهم مراد المتكلم وقصد المخاطب، ذلك أنّ غنى النّص القرآني وما يحمله من معان ودلالات في داخل النّص واحتمال تعددها في السورة القرآنية بأكملها وهو ما يفسّر تقارب المفسّرين في تحديد دلالة المفردة داخل النّص

3ـ يعد التقديم والتأخير متغيرا أسلوبيا في اللغة؛ لأنه عدول عن القاعدة العامة وذلك بتحويل الألفاظ عن مواقعها الأصلية لغرض يتطلبه المقام " السياق" بوجود قرئن

محددة، وإذا غابت تلك القرائن التي تميّز الفاعل عن المفعول والمبتدأ عن الخبر يلجا إلى قرينة الرتبة فيلزم الكلام تقديم وتأخير لفهم المعنى

4ـ قد امتاز القرآن الكريم بأسلوب الحذف وهو أسلوب ليس بغريب عن اللغة العربية شريطة أمن اللبس وهُنا يمكن أن نميّز بين الحذف الجائز أو الضروري والتعسّفي الذي يؤدي إلى غموض أو لبس يعيق عن الفهم الصحيح للنص.

الهوامـــــــــــش:

1- أنظر نرجس باديس، المشيرات المقامية في اللغة العربية، 2005 ، ص22
2- أنظر أحمد فهد صالح شاهين، النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، عالم الكتاب الحديث للنشر و التوزيع ، إربد، الأردن،2015- 1
3- أنظر مدخل إلى التداولية ، مارتن براموبس ، ترجمة علي يوسف أسعد ، ص 11
4- المرجع السابق ص 11
5- علي يونس ، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب،دار الكتاب الجديدة المتحدة ، لبنان ، ص13
6- وائل حمدوش ،التداولية ،دراسة في المنهج ..ومحاولة في التصنيف ص4
7- علي يوسف مدخل إلى التداولية ،ص 28
8- المرجع السابق ، ص 29
9- المرجع السابق، ص 29
10- مارتن براكوبس، مدخل إلى التداولية، ص 30-31

11- المرجع السابق ص 34
12- أنظر جواد ختام، التداولية أصولها واتجاهاتها، ص 56
13- محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية مدخل تاريخي مقارن في ضؤ التراث واللغات السّامية ، ص12
14- أنيس فريحة، نظريات في اللغة، ص 11
15- المرجع السابق ص21
16- أحمد جودة، التداولية وتحليل الخطاب، ص 171
17- أحمد البراهمي ،السياق أهمية و ماهيته، ص 308
18- الشهيري ،استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، 2004، ص 49
19- الخالدي ،أثر سياق الكلام في العلاقات النحوية عند سيبويه ، 2006، 30-31
20- الوهاب أبو صفية، دلالة السياق و منهج مأمون لتفسير القرآن ، ص 88
21- نور الهدى لوشن ،45، 1995
22- الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، 2-233
23- خليل أحمد عمايره ، في النحو العربي و تركيبه ، 87-88
24- مرتضى الجواد باقر ، جوانب من نظرية النحو ، نعوم تشومسكي ، 35
25- سورة البقرة الآية 34
26- رشيد رضا ، تفسير المنار / 1-181
27- الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير ، 1-420
28- سورة الأنعام الآية84
29- رشيد رضا ، تفسير المنار 7-430
30- محمود حسني ، النحو الشّافي ،ص 390
31- النحاس ، إعراب القرآن ، 1-399
32- السيوطي ، البرهان ،ص 574
33- ابن الأثير ضياء الدين، المثل السائرفي أدب الكاتب و الشاعر ، 2- 210
34- الخطيب القزويني، الايضاح في علوم البلاغة ، ،182
35- ابن جني ، الخصائص ، 2-140
36- السيوطي ، البرهان ، 3-111
37- محمد ملياني ، جمالية الحذف من منظور الدراسات الأسلوبية ، 67
38- محمد ابو موسى، خصائص التركيب ،ص 153
39- سورة البقرة الآية 259
40- الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، 2-34
41- سورة الأعراف 184
42- لنحاس ، إعراب القرآن و بيانه ، 3-502
43- رشيد رضا ، تفسير المنار ، 10-333
44- سورة التوبة الآية 52
45- رشيد رضا ، تفسير المنار ، 10-363